نسوة المدينة

# قصص النساء في القرآن

## [5] نسوة المدينة

وقد ورد ذكرهن في قوله تعالى:{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ} [يوسف: ٣٠]، وقيل إنهن خمسة: امرأة الساقي، وامرأة الحاجب، وامرأة الخباز، وامرأة السجّان، وامرأة صاحب الدواب.

***

### موجز القصة:

لما كان من أمر يوسف على نبينا وعليه السلام والعزيزة ما كان، شاع الخبر في المدينة تدريجا، وصارت النساء وهن سيدات المدينة يتحدثن به في مجامعهن ومحافلهم فيما بينهن ويعيرن بذلك عزيزة مصر ويعبنها أنها تولهت إلى فتاها وافتتنت به وقد أحاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه، وضلت به ضلالا مبينا.

وكان ذلك مكرا منهن بها على ما في طبع أكثر النساء من الحسد والعجب؛ فإن المرأة تغلبه العواطف الرقيقة، والإحساسات اللطيفة، وركوز لطف الخلقة وجمال الطبيعة فيها مشعوفة القلب بالزينة والجمال متعلقة الفؤاد برسوم الدلال، ويورث ذلك فيها وخاصة في الفتيات إعجابا بالنفس وحسدا للغير.

وبالجملة كان تحديثهن بحديث الحب والمراودة مكرا منهن بالعزيزة - وفيه بعض السلوة لنفوسهن والشفاء لغليل صدورهن - ولما يرين يوسف عليه السلام، ولا شاهدن منه ما شاهدته العزيزة قولها وهتك سترها، وإنما كن يتخيلن شيئا ويقايسن قياسا، وأين

الرواية من الدراية والبيان من العيان.

و شاع التحديث به في المسامرات حق بلغ الخبر امرأة العزيز تلك التي لا هم لها إلا أن تفوز في طلب يوسف وبلوغ ما تريد منه ولا تعبأ في حبه بشيء من الملك والعزة إلا لأن تتوصل به إلى حبه لها وميله إليها وإنجاحه لطلبتها فاستيقظت من رقدتها وعلمت بمكرهن بها فأرسلت إليهن للحضور لديها وأنهن سيدات ونساء أشراف المدينة وأركان البلاد ممن له رابطة المعاشرة مع بيت العزيز.

فتهيأن للحضور وتبرزن بأحسن الجمال وأوقع الزينة على ما هو الدأب في أمثال هذه الاحتفالات من أمثال هؤلاء السيدات، وكل تتمنى أن ترى يوسف وتشاهد ما عنده من الحسن الذي أوقع على العزيزة ما أوقع وفضحها.

و العزيزة لا هم لها يومئذ إلا أن تريهن يوسف حتى يعذرنه ويشتغلن عنها بأنفسهن فتتخلص من لسانهن فتأمن مكرهن، وهي لا تعبأ بافتتانهن بيوسف ولا تخاف عليه منهن لأنها - على ما تزعم - مولاته وصاحبته ومالكة أمره، وهو فتاها المخصوص بها، وهي تعلم أن يوسف ليس بالذي يرغب فيهن أو يصبو إليهن، وهو لا ينقاد لها فيما تريده منه بما عنده من الاستعصام والاعتزاز عن هذه الأهواء والأميال.

ثم لما حضرن عند العزيزة وأخذن مقاعدهن، ووقع الأنس وجرت المحادثة والمفاوضة وأخذن في التفكه آتت كل واحد منهن سكينا وقد هيأت لهن وقدمت إليهن الفاكهة، عند ذلك أمرت يوسف

أن يخرج إليهن وقد كان مستورا عنهن.

فلما طلع يوسف عليهن ووقعت عليه أعينهن طارت عقولهن وطاحت أحلامهن ولم يدرين دون أن قطعن أيديهن مكان الفاكهة التي فيها لما دخل عليهن من البهت والذهول، وهذه خاصة الوله والفزع فإن نفس الإنسان إذا انجذبت إلى شيء مما تفرط في حبه أو تخافه وتهوله اضطربت وبهتت ففاجأها الموت أو سلبت الشعور اللازم في تدبير القوى والأعضاء وتنظيم الأمر، فربما أقدم مسرعا إلى الخطر الذي أدهشه لقاؤه وربما نسي الفرار فبقي كالجماد الذي لا حراك به، وربما يفعل غير ما هو قاصده وفاعله اختباطا، ونظائرها في جانب الحب كثيرة وحكايات المغرمين والمتولهين من العشاق مشهورة. وكان هذا هو الفرق بين العزيزة وبينهن فإن استغراقها في حب يوسف إنما حصل لها تدريجا، وأما نساء المدينة فإنهن فوجئن به دفعة فغشيت قلوبهن غاشية الجمال، وغادرهن الحب ففضحهن وأطار عقلهن وأضل رأيهن فنسين الفاكهة وقطعن أيديهن وتركن كل تجلد واصطبار، وأبدين ما في أنفسهن من وله الحب، وقلن:{حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٣١].

هذا وهن في بيت العزيز وهو بيت يجب فيه التحفظ على كل أدب ووقار، وكان يجب أن يتقينها ويحتشمن موقعها وهن شريفات ذوات جمال وذوات بعولة وذوات خدر وستر وهذه كلها جهات مانعة عن الخلاعة والتهتك، وهن لم ينسين ما كن بالأمس يتحدثن به ويلمن ويذممن امرأة العزيز في حبها ليوسف وهما في بيت واحد منذ سنين.

فكان من الواجب على كل منهن أن تتقي صواحبها فلا تتهتك

وهن يعلمن ما انجر إليه أمر امرأة العزيز من سوء الذكر وفضاحة الشهرة هذا كله ويوسف واقف أمامهن يسمع قولهن ويشاهد صنعهن.

لكن الذي شاهدنه على المفاجأة من حسن يوسف نسخ ما قدرنه من قبل في أنفسهن وبدل مجلس الأدب والاحتشام حفلة عيش لا يكتم محتفلوها من أنفسهم ضميرا، ولا يبالي حضارها ما قيل أو يقال فيهم ولم يلبثن دون أن قلن{حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٣١]، وقد قلن غير بعيد:{ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ } [يوسف: ٣٠].

وكلامهن هذا بعد قولهن ذاك إعذار منهن فمفاده أن الذي كنا نقوله قبل إنما هو حق لو كان هذا بشرا وليس به وإنما يذم الإنسان ويعاب لو ابتلي بهوى بشر ومراودته وكان في وسعه أن يكتفي عنه بما يكافئه ويغني عنه، وأما الجمال الذي لا يعادله جمال، ويسلب كل حزم واختيار، فلا لوم على هواه، ولا ذم في غرامه.

ولهذا انقلب المجلس دفعة، وانقطعت قيود الاحتشام فانبسطن وتظاهرن بالقول في حسن يوسف وكل تتكلم بما في ضميرها منه، وقالت امرأة العزيز:{فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ} [يوسف: ٣٢]؛ فأبدت سرا ما كانت تعترف به قبل ثم هددت يوسف تجلدا وحفظا لمقامها عندهن وطمعا في مطاوعته وانقياده:{وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ } [يوسف: ٣٢].

وأما يوسف فلم يأخذه شيء من تلك الوجوه الحسان بألحاظها الفتانة، ولا التفت إلى شيء من لطيف كلامهن ونعيم مراودتهن، أو هائل تهديدها فقد كان وجهة نفسه جمال فوق كل جمال، وجلال يذل

عنده كل عزة وجلال فلم يكلمهن بشيء ولم يلتفت إلى ما كانت امرأة العزيز تسمعه من القول، وإنما رجع إلى ربه فقال:{رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ} [يوسف: ٣٣].

و كلامه هذا إذا قيس إلى ما قاله لامرأة العزيز وحدها في مجلس المراودة:{مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ}

[يوسف: ٢٣]؛ دل بسياقه على أن هذا المقام كان أشق، وأمر على يوسف عليه السلام إذ كان بالأمس يقاوم هم امرأة العزيز، ويعالج كيدها وحدها، وقد توجهت إليه اليوم همهن، ومكايدهن جميعا، وكان ما بالأمس واقعة في خلوة على تستر منها، وهي وهن اليوم متجاهرات في حبه متظاهرات في إغوائه ملجآت على مراودته، وجميع الأسباب والمقتضيات اليوم قاضية لهن عليه أشد مما كانت عليه بالأمس، ولذا تضرع إلى ربه سبحانه وتعالى في دفع كيدهن هاهنا، واكتفى بالاستعاذة إليه سبحانه هناك فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.

وقوله تعالى:{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا} [يوسف: ٣٠]؛ النسوة اسم جمع للمرأة، وتقييد بقوله:{فِي ٱلْمَدِينَةِ} تفيد أنهن كن من جهة العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن في شيوع الفضيحة.

و امرأة العزيز هي التي كان يوسف في بيتها وقد راودته عن نفسه، والعزيز معناه معروف، وقد كان يلقب به السيد الذي اشترى يوسف من السيارة، وكان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض، وفي قوله:{تُرَٰوِدُ}؛ دلالة

على الاستمرار، وهو أفحش المراودة، والفتى الغلام الشاب، والمرأة فتاة، وقد شاع تسمية العبد فتى، وكأنه بهذه العناية أضيف إلى ضميرها فقيل:{فَتَىٰهَا}.

وقوله:{شَغَفَهَا حُبًّا}؛ أي: أصاب شغاف قلبها؛ أي: باطنه. عن الحسن، وقيل: وسطه. عن أبي علي، وهما يتقاربان، وشغاف القلب غلافه المحيط به؛ والمعنى: وقال عدة من نساء المدينة لا يخلو قولهن من أثر فيها وفي حقها: امرأة تستمر في مراودة عبدها عن نفسه ولا يحري بها ذلك لأنها امرأة ومن القحة أن تراود المرأة الرجل بل ذاك - إن كان - من طبع الرجال وأنها امرأة العزيز فهي عزيزة مصر؛ فمن الواجب الذي لا معدل عنه أن تراعي شرف بيتها، وعزة زوجها، ومكانة نفسها، وإن الذي علقت به عبدها من الشنيع أن يتوله مثلها، وهي عزيزة مصر بعبد عبراني من جملة عبيده، وأنها أحبته وتعدت ذلك إلى مراودته فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت واستمرت على مراودته وذلك أقبح وأشنع وأمعن في الضلال؛ ولذلك عقبن قولهن:{ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ} بقولهن:{إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ}.

**قال علماؤنا حفظهم الله تعالى:** هؤلاء النسوة لم يُسمّهن القرآن الكريم، وإنما أشار إليهن مرة واحدة، جاءت بصيغة نسوة المدينة، وذلك في قوله تعالى:{وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠} [يوسف: ٣٠].

**قال البغدادي:** " وإنما تكلم النسوة في حق امرأة العزيز " زليخة " طعنا فيها، تحقيقا لبراءة يوسف عليه السلام. ولم يُسمّ القرآن هؤلاء النسوة، ولم يُشِر إليهن بصيغة أخرى، فمن هُنّ هؤلاء النسوة؟

ومن هم أزواجهن بصفات أعمالهم؟ وما قصتهن؟

نسوة المدينة... وهن...

امرأة الساقي، وامرأة الحاجب، وامرأة الخباز، وامرأة السجّان، وامرأة صاحب الدواب.

**تمت القصة بعون الله تعالى**

* * *